



حياته:

هذه وقفاتٌ موجزة في حياة شیخ‌الاسلام ابن تیمیة، لم أقصد منها أن تكون سیرةً لحياته، وإنما إعطاء نظرٍ سريعةٍ يؤخذ منها العبرة، وتعطی صورةً لجهاد هذا الرجل العظيم.

- الاسم: أَحْمَد تَقِيُ الدِّين بْن شَهَاب الدِّين عَبْدُ الْحَلِيم بْن أَبِي الْبَرَّكَات مَجْدُ الدِّين بْن تِيمِيَّة، الْحَرَانِي، الدَّمْشَقِي (أَبُو الْعَبَّاس).

- ولادته: ولد بحران^[1] يوم الاثنين 10 من شهر ربيع الأول سنة 661 هـ.

- انتقل مع والده من حران إلى دمشق، وكان عمره سبع سنوات، وذلك بعد إغارة التتر على حران.

- تُوفِي والده وعمره 22 سنة، سنة 682 هـ.

قام مقام والده في مشيخة التدريس في هذه السن المبكرة، بدار الحديث السكرية في 2 المحرم 683 هـ، وحضر درسَه كبار

علماء دمشق.

- رحل إلى الحج سنة 692هـ.

- المعارضة الأولى لأفكاره كانت سنة 698هـ عندما وجّه إليه أهل حماة يسألونه عن تحقيق العلماء في الصفات التي وصف الله بها نفسه، فدافع ابن تيمية عن عقيدة السلف واعتقاد أهل السنة.

- توجه التتر إلى دمشق سن 699هـ، وهزموا جيش الملك الناصر محمد بن قلاوون القايد من مصر.

- في يوم الاثنين من ربيع الآخر سنة 699هـ اجتمع ممثّل أهل دمشق وسفير الإسلام ابن تيمية بقازان طاغية التتر في بلدة (النبل)[2]، وقال له: "أنت تزعم أنك مسلم، ومعك قاضٍ وإمام وشيخ ومؤذنون - على ما بلغنا - فغزّوْنَا، وأبوك وجُدُّك كانا كافرين، وما عملا الذي عملت، عاهَدَا فوفيا، وأنت عاهدتَ فغدرتَ، وقلتَ فما وَفَيْتَ، وَجُرْتَ"[3].

- في عام 700هـ توجّه إلى مصر، لما اشتد الأمر بالشام من المغول[4]، مسترضاً المسؤولين هناك، وبعد حضهم على الجهاد عاد إلى دمشق بعد أيام.

- شارك في وقعة شقحب[5] سنة 702هـ، وكانت وقعة عظيمة بين التتار وال المسلمين، وأُبلِي فيها شيخ الإسلام بلاه حسناً.

- في سنة 704هـ توجّه لقتال الكسروانين[6] واستئصال شأفتهم.

- في سنة 705هـ طلبه السلطان محمد بن قلاوون إلى مصر، ووصلها في 22 رمضان، وعقد له السلطان مجلساً علمياً بعد صلاة الجمعة، حضره القضاة وأكابر الدولة.

ثم حبسه بالجب بقلعة الجبل ومعه أخواه: شرف الدين عبدالله، وزين الدين عبد الرحمن، سنة ونصفاً، ثم خرج بعد ذلك.

- وفي سنة 707هـ عقد له مجلساً ظهر فيه على خصومه في طريقة الاتحادية[7]، ثم أمر بتسفيره إلى الشام، ثم أمر برده وسجنه بحبس القضاة سنة ونصفاً، ثم أخرجه منه، ووجّه إلى الإسكندرية، وجعله في برج، حبس فيه ثمانية أشهر، ثم توجّيه إلى مصر، واجتماعه بالسلطان في مجلس ضم القضاة وأعيان الأمراء، وإكرامه له إكراماً عظيماً، ومشاورته له في قتل بعض أعدائه، وامتناع الشیخ عن ذلك، ثم سكناه القاهرة، ثم توجّه إلى الشام، ثم ملزمه بدمشق لنشر العلوم، وتصنيف الكتب، وإفقاء الخلق.

- في سنة 718هـ، أثار الناس بمسألة الحلف بالطلاق، فحبس على أثرها بالقلعة خمسة أشهر وثمانية عشر يوماً.

- في سنة 726هـ أعيد إلى سجن القلعة، وكان أخوه يخدمه فيه، وقد كتب في السجن في مسائل كثيرة حتى منع من الكتابة، ولم يتركوا له قلماً ولا ورقة، وكتب عقب ذلك بفحم، وأقبل على التلاوة والعبادة والتهجد حتى وفاته ليلة 22 من شهر ذي القعدة سنة 728هـ، وارتحل عن الدنيا وقد بلغ من العمر 67 سنة - رحمه الله.

علمه:

قال الذهبي عن ابن تيمية: "إنه صار من أكابر العلماء في حياة شيوخه... ولعل تصانيفه في هذا الوقت تكون أربعة آلاف كُرَاسٍ وأكثر، وفسر كتاب الله - تعالى - مدة سنتين من صدره أيام الجمعة، وكان يتقدّم ذكاءً، وسماعاته من الحديث كثيرة، وشيوخه أكثر من مائتي شيخ، ومعرفته بالتفسير إليها المنتهي، وحفظه للحديث ورجاله وصحيحة وسقيمه مما لا يُلْحق فيه، وأما نقله للفقه ولمذاهب الصحابة والتابعين، فضلاً عن المذاهب الأربع، فليس له نظير، وأما معرفته بالملل والنحل، والأصول والكلام، فلا أعلم له فيه مثيلاً، ويدري جملةً صالحةً من اللغة، وعربته قوية جدًّا، وأما معرفته بالتاريخ والسير فعجبٌ عجيبٌ"[8].

ذكريه وذكاؤه:

اتفق المعاصرُون والمتَّخِذُون كُلُّهم على قوة حفظه، وسرعة فهمه، وشدة ذكائه، يقول زميله في الدراسة علم الدين البرزالي:

"قلَّ أَنْ سَمِعَ شَيْئًا إِلَّا حَفِظَهُ، وَكَانَ ذَكِيًّا كَثِيرُ الْمَحْفُوظِ" [9].

قال الذهبي: "ما رأيت أشد استحضاراً للمتون وعزّوها منه، وكانت السنة بين عينيه وعلى طرف لسانه" [10].
وقال معاصره كمال الدين الزملکاني الذي كان خصمه في مجلس المناظرة: "لم يُرَ من خمسمائة سنة أو أربعمائة سنة - والشك من الناقل - أحفظ منه" [11].

وقال الذهبي: "كان يتقدّم ذكاءً، ويقول في مكان آخر: "كان آية على الذكاء وسرعة الإدراك" [12].

أُخْلَاقُهُ:

قالوا في أخلاقه: "نشأ في تصوّنٍ تامٍ، وعفافٍ وتألّه، واقتصر في الملبس والمأكل، ولم ينزل على ذلك خلّاً صالحًا، برأًّا بوالديه، تقىًّا ورعًا، عابدًا ناسكًا، صوامًا قوامًا، ذاكراً الله - تعالى - في كلّ أمر، وعلى كلّ حال، رجاعًا إلى الله - تعالى - في سائر الأحوال والقضايا، وقافًا عند حدود الله - تعالى - وأوامره ونواهيه، آمراً بالمعروف، ناهيًّا عن المنكر، فارغاً عن شهوات المأكل والملابس، لا لذة له في غير نشر العلم وتدريسه، عرض عليه منصبٌ قضاء القضاة ومشيخة الشيوخ، فلم يقبل" [13].

أما شجاعته، فحدّث عنها ولا حرج، لقد كان شجاعًا صامدًا أمام الموت، والشجاعة التي أبدتها إزاء المغول، وثبات الجأش الذي ظهر به أمامهم، أثار استغراب الجميع [14].

يصفُّ الحافظ سراج الدين عمر بن علي البزار بما يلي: "وكان إذا ركب الخيل يجول في العدو كأعظم الشجعان، ويقوم كأثبت الفرسان، وينكِي العدو من كثرة الفتك بهم، ويخوض بهم خوض رجل لا يخاف الموت" [15].

مَؤْلِفَاتُهُ:

يقول الشيخ أبو الحسن الندوبي - رحمة الله - عن خصائص ابن تيمية العلمية والتأليفية بعد أن ذكر الذخائر العلمية التي كانت في عصره: "يُبَحِّر ابن تيمية - بفضل ذكائه وقوه ذاكرته الموهوبة - في هذه الذخائر العلمية بأكملها، واستساغها فكريًّا، واستفاد منها في مؤلفاته استفادة كاملة، إلا أن نفسه الطموح المضطربة، وعقله النادر الكبير، وقلمه السيَّال البليغ، لم يكن كل ذلك ليقنعه بأن يكتفي بالنقل والرواية والشرح والتلخيص أو الاختيار، فما كاد يفارقه علمه العميق بكتاب الله - تعالى - واطلاعه الواسع الصحيح على مقاصد الشريعة، وملكته الراسخة في أصول الفقه وأصول التشريع في أي مرحلة من مراحل تأليفه... ولذلك لا نجد أى كتاب من كتبه يخلو من حفائق علمية جديدة، وبحوث ناقدة، ومباحث أصولية جديدة، بل إن مؤلفاته تشق طريقًا جديًّا لفهم الكتاب، وتفتح بابًا جديًّا في إدراك مقاصد الشريعة" [16].

ولن نعدِّ في هذه العجالة مؤلفاته الكبيرة في العقيدة، والفقه وأصوله، والتفسير، والحديث، قال الذهبي: "ولعل تصانيفه في هذا الوقت تكون أربعة آلاف كراس وأكثر، وفسر كتاب الله - تعالى - مدة سنتين من صدره أيام الجمعة"، وهناك كتب كثيرة تحدثت عن مؤلفات ابن تيمية [17]، مع العلم أن أكثر كتبه تحوي بحوث العقائد، والفقه وأصوله، والحديث، والتفسير [18].

تأثير ابن تيمية في الفكر الإسلامي المعاصر:

تأثير الكثير من المدارس الفكرية العربية والإسلامية بذكر ابن تيمية ومنهجه السلفي في الدين والأخلاق وال التربية ومنهج المعرفة.

في الجزيرة العربية كان تأثير ابن تيمية واضحاً في حركة التوحيد التي بدأها الشيخ محمد بن عبد الوهاب، والمعروف دورها في تاريخ الجزيرة العربية خاصة، والأقطار العربية والإسلامية بعامة، ولقد وصف المستشرق "ورنكان ماكدونالد" هذه الحركة بأنها "النقطة المضيئة في تاريخ العالم الإسلامي خلال فترة الركود والجمود"، ووصفها المفكر والشاعر الإسلامي الكبير محمد إقبال بأنها أول نبضة حياة في تاريخ المسلمين الحديث، وأن آثارها قد استلهمنتها بشكل مباشر أو غير مباشر

جميع حركات الإصلاح في العالم العربي وفي الهند وإفريقيا وغيرها[19].

وتأثرت به أيضًا مدرسةُ الشيخ محمد عبده وتلميذه الشيخ محمد رشيد رضا، ويظهر ذلك من خلال الأبحاث التي كانت تنشرها "مجلة المنار" التي صدرت في القاهرة في الفترة 1898 - 1935 م، ولاقت انتشاراً واسعاً في مصر وخارجها.

- وفي المغرب دخلت أفكار ابن تيمية عن طريق الحركة السلفية بمصر، ووجدت صداقاً في الشيخ عبدالحميد بن باديس وجمعية العلماء المسلمين في الجزائر.

- وبعد الحرب العالمية الأولى وال الحرب العالمية الثانية بدا تأثير ابن تيمية واضحًا في مدرستين إسلاميتين؛ هما: مدرسة أبي الأعلى المودودي وسيد قطب، ومدرسة مالك بن نبي:

• أما مدرسة أبي الأعلى المودودي في القارة الهندية ومدرسة سيد قطب في العالم العربي، فنرى تأثير ابن تيمية فيهما واضحًا، فقد استعمل المصطلحات ذاتها التي استعملها ابن تيمية، مثل: (الجاهلية)، (إقامة حكم الله في الأرض)، (لإله إلا الله منهج حياة)، (العبادة)، وربط ذلك بمفهوم الشهادتين[20].

• وحينما ردَّ حسن البنا عبارته: "يا قومنا، ندعوكم والقرآن في يميننا، والسنة في شمالنا، وأعمال السلف الصالحة قدوتنا"، فقد كان يشير على نهج ابن تيمية من الدعوة إلى المنابع الصافية في القرآن والسنة وأعمال السلف الصالحة[21].

• أما بالنسبة للمدرسة الثانية - مدرسة مالك بن نبي - فقد نشأت كمزيجٍ من التأثير بالاتجاه السلفي الذي بدأه عبدالحميد بن باديس، والتأثر بالخبرات الذاتية لمالك في التراث الإسلامي والتراث الأوروبي، ولقد أتجهت هذه المدرسة للتخصص في منهج التحويل النفسي والفكري أو "تغيير ما بالأنفس" كمقدمة "لتغيير ما بالقوم"، ولقد عكس مالك بن نبي في كتابه: (شروط النهضة)، (مشكلة الثقافة)، (ميلاد مجتمع) الاتجاهات التي وردت في كتاب ابن تيمية (اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم)[22].

هذه نبذة عن حياة إمام فاضل مجاهد، حمل السيف والسنان، كما حمل القلم والبيان، عالم تعلق قلبه وعقله وفكره بالكتاب والسنة والسلف الصالحة - رضي الله عنهم - مفكر اتصل بالحياة، وأثر في مفكريها وعلمائها.

ولا بد أن أذكر في ختام هذه العجالة عن حياة شيخ الإسلام ابن تيمية، أن هناك من العلماء من اختلف معه في أمور العقيدة والفقه، وهناك من رفعه إلى درجة عالية من العلم، وهناك من قدح فيه، وصدق الشيخ محمد أبو زهرة حين قال عنه: "إن المشاهد قديماً وحديثاً أن الرجل الذي يختلف الناس في شأنه بين إعلاه وإهواه، لا بد أن يكون رجلاً كبيراً في ذات نفسه، وعظيماً في خاصية أمره، له عبقرية استرعت الانتظار، واتجهت إليها الأ بصار... وكذلك كان ابن تيمية - رضي الله عنه - قد كان عظيماً في ذات نفسه، اجتمعت له صفات لم تجتمع في واحد من أهل عصره، فهو الذكي الألمعي، وهو الكاتب العبقري، وهو الخطيب المقصع، وهو الباحث المنقب... وقد آتاه الله لساناً مبيناً، وقلباً حكيمًا، وقلمًا عليماً[23].

[1] حَرَانْ: بلدة في جزيرة ابن عمرو، بين دجلة والفرات [شرق نهر الفرات] جنوب أورفة - في تركيا حالياً - وهي مدينة تاريخية، ظلت مركزاً دينياً وعلمياً للصابئين، وشتهرت بالفلسفة والعلوم اليونانية القديمة.

[2] تقع بين دمشق وحمص حالياً.

[3] انظر: الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية، للحافظ عمر بن علي البزار، ص 72، ط المكتب الإسلامي 1396 هـ، بيروت - لبنان.

[4] المغول والتنار أمة من الجنس الأصفر، غزوا العالم الإسلامي فخرابوا البلاط، وقضوا على معلم الحضارة الإسلامية، ثم هدأتم الله إلى الإسلام، فكانوا من جنوده بعد ذلك.

[5] شقحب: عين ماء جنوب دمشق، بعد "الكسوة" على يمين الذاهب إلى حوران.

[6] هم سكان جبل كسروان في بلاد الشام، من أصحاب العقائد الفاسدة، والذين كانوا عوناً للفرنج والتنار.

[7] أصحاب مذهب وحدة الوجود، ويوجد منهم في البيانات الثلاث، وهذه العقيدة لا شك في كفرها؛ فإنها تسوى بين العبد والرب، والخالق والمخلوق.

[8] انظر: الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية ص 26.

- [9] الحافظ أحمد ابن تيمية لأبي الحسن الندوى، ص 101، ط 4، دار القلم، الكويت، 1407هـ - 1987م، نقلًا عن الرد الوافر لابن ناصر الدين الدمشقي ص 66.
- [10] المرجع السابق نقلًا عن القول الجلي ص 101.
- [11] المرجع السابق نقلًا عن الرد الوافر ص 29.
- [12] المرجع السابق.
- [13] انظر: ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية، محمد كرد علي، ص 10.
- [14] الحافظ أحمد ابن تيمية، لأبي الحسن الندوى ص 105.
- [15] الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية، ص 69.
- [16] الحافظ ابن تيمية، لأبي الحسن الندوى ص 236.
- [17] انظر: كتاب الثبت فيه قوائم مخطوطات شيخ الإسلام ابن تيمية، تصنيف علي بن عبدالعزيز الشبل، دار الوطن، الرياض 1417هـ.
- [18] صدرت فتاوى ابن تيمية في الرياض، في المملكة العربية السعودية في 37 مجلدًا، وهي تجمع كثيرًا من مؤلفاته الصغيرة غالباً، وتحتاج إلى التوثيق العلمي حتى تكون من أهم المصادر عن الإمام ابن تيمية، وعند الرجوع إليها خلال هذا البحث أطلقت عليها اسم فتاوى الرياض للاختصار.
- [19] انظر: الفكر التربوي عند ابن تيمية، د. ماجد عرسان الكيلاني، مكتبة دار التراث، المدينة المنورة، ط 2، 1407هـ، ص 11 - 97.
- [20] المرجع السابق.
- [21] المرجع السابق.
- [22] المرجع السابق.
- [23] ابن تيمية: حياته وعصره، آراؤه وفقهه، محمد أبو زهرة، ص 5 - 7، دار الفكر العربي، القاهرة 1977م.

الألوكة

المصادر: